أساليب التفكير :

فلسفة الشعب

للأستاذ عبد المنعم المليجي

— ٢ —

يقول حكيم الشعب : « اعمل خيراً وارمه فى البحر » . فماذا يعنى عليه هذا القول ؟ إنه يرى فناء كل حى ، وزوال كل نعمة ، وضياع كل مجد ؛ ويرى إلى ذلك أن ذكرى العمل الصالح تبقى حية فى الأذهان والقلوب والضمائر ، وأن لفعل الخير حلاوة تجعل منه غاية جديرة بأن تُطلب لذاتها وكفيلة وحدها أن تحقق السعادة فى نظره ليست فى جاه نهلته ، أو صيت نذيعه ، أو مال نصيبه ، إنما هو فى راحة الضمير وهدوء النفس ، ولا سبيل إلى ذلك بغير سلامة النية وصفاء الطوية وهما لا يتفقان مع طلب الخير لغير الخير . إعمل خيراً وألق به فى البحر ، وترقب السعادة بعد ذلك تأتيك طوعاً من حيث لا تدرى ولا تحتسب .

أيختلف هذا الاتجاه المثالى فى شىء عن اتجاه الشاعر الفيلسوف «جيته» فى قصة «فاوست» ؟ . لقد جاهد فاوست جهاداً طويلاً مريراً دون أن يظفر بشىء ، ولكن حياته لم تضع هدراً إذ رفعه المؤلف إلى جنات ربه ؛ وما ذلك إلا لأنه قد أحس بالحق والخير والجمال فجاهد فى سبيلها وكان فى جهاده هذا خلاصه. ثم إن معنى تلك الحياة والأثر الذى خلفته خطى فاوست على صفحات الزمن هو أنه علينا أن نثابر ما استطعنا فى سبيل المثل العليا ، وسيان بعد ذلك أأصبنا نجاحاً أم إخفاقاً ، فالجهاد نبيل فى ذاته »[1] . ذلك هو الاتجاه القلق الذى تنطوى عليه قصة فاوست وهو نفسه الاتجاه الذى تنطوى عليه عبارة حكيم الشعب « اعمل خيراً وألق به فى البحر » . أى هدوء تحس به النفوس الحيرة إذ تتمثل هذا الدرس فتغالب بقوته السحرية تيار الجشع والاستهتار . حقاً إن الفلسفة الشعبية الساذجة لتتسامى مع الفن والدين فى التخفيف من أعباء الحياة .

وبعد ، أليس ما ذهب إليه الشعب فى حكمته أو « جوته » فى قصته ، من اعتبار الخير غاية تُقصد لذاتها ، هو فى جوهره عين ما ذهب إليه الفيلسوف الألمانى العظيم « عمانوئيل كنط » فى مذهبه الأخلاقى الذى يرى أن الخير الأسمى الذى يتعين علينا أن نخضع له هو «الواجب» المجرد الذى يمليه علينا «أمر مطلق» يصدر من تلك القوة الذاتية الخفية التى ندعوها « الضمير » ، تلك القوة التى تعتبر صورة الله فى نفوسنا ، فالله فى الأبدية والضمير فى أعماق النفس البشرية ؟ إن السعادة فى نظر كنط إنما هى فى الخضوع للأمر المطلق الصادر من الضمير ، والعمل للواجب لذاته وأمر يتفق تماماً مع ما ذهب إليه كل من جوته والحكيم الشعبى ...

ويعرض أرسطو لنفس المسألة فيحصر الخيرات فى ثلاثة : إما اللذة ، وإما المجد ، وإما الحكمة . ويُعمل عقله أيها يختار على اعتبار أنه الخير الأسمى ؟ فيرى اللذة شعوراً نفسياً يصاحب فعلا من الأفعال أو وظيفة من الوظائف ، وعليه فلا يمكن أن تكون غاية فى ذاتها ؛ وإنما هى عرض يزول بانتهاء الفعل أو الوظيفة ، ويرى المجد لمال نصيبه ، أو شهرة ننالها ، أو تكريم نحصل عليه ، فليس المجد هو الغاية القصوى ، إنما الغاية المال أو الشهرة أو التكريم. وهكذا تنتهى فلسفة أرسطو الأخلاقية إلى اعتبار الحكمة هى الخير الأسمى الذى ينبغى أن نطلبه ونعمل وفقاً له ، وما الحكمة إلا تغلب قوى العقل على قوى الحس ، وتفضيل السعادة الدائمة على اللذات المؤقتة ، ونشدان الاتزان النفسى وراحة الضمير — وهل لأحدهما أو كليهما أن يتحقق ما لم « نفعل الخير ونلقه فى البحر » كما يفعل الحكيم الشعبى ، وما لم « ندأب ما استطعنا فى سبيل المثل العليا » كما فعل « فاوست » ، وما لم نصغ لصوت الضمير الكامن فى أعماق نفوسنا شأن « عمانوئيل كنط » ؟!

فهم السعادة :

حلا للأستاذ الزيات أن يسأل قروية ساذجة : « كيف ترضى بالحياة وهى قصيرة ، وتبسم للدنيا وهى ضحوكة » ؟ فأجابت : « الماء فى الكوز والعيش مخبوز » . ثم مضى أستاذنا يحاورها

(١) نماذج بشرية تأليف الدكتور محمد مندور .

حتى ينتزع من فمها درساً غالياً فى فن السعادة . قالت أم عامر :

« نشـأت كما تنشأ القرويات الفقيرات ، على التلول كالدجاج وأنا طفلة ، وبين الحقول كالذئاب وأنا صبية ؛ آكل العشب وأستمرئه ، وأشرب الكدر وأستسيغه ، وألبس الخشن وأستلينه ، وأفترش المدر وأستوطئه ، وأعالج الصعب وأستسهله . والذى أحلى المر فى فمى ، وجمّل القبيح فى عينى ، وألان الغليظ لجانبى : صحة كصحة الظبي الشادن لم تحتج يوماً لراحة ، ولم تحتج يوماً إلى دواء ؛ ومرانة على عنف الطبيعة لا تفرق طاقتها بين صبح ومساء ، ولا بين صيف وشتاء ؛ ونفس راضية تقنع بميسور العيش وتخضع لمكتوب القضاء ... »[1] .

لقد استطاعت صاحبتنا بجهد ذاتى أن تنتصر على أقسى ظروف الحياة وتنعم بالرضا والهدوء ، ذلك أنها « مرنت على عنف الطبيعة ، وقنعت بميسور العيش ، وخضعت لمكتوب القضاء . » هى إذن ببصيرة نافذة وملكة الحكم السليم ترى السعادة أمراً شخصياً وليس رهناً بالظروف الخارجية ، هى شأن من شئون الذات بمقدور كل إنسان أن يحققها على رغم قسوة الظروف الخارجية .

تلك فلسفة نستشفها من ثنايا العبارات الصادقة على سذاجتها يفوه بها نفر من البسطاء وهى لا تفترق فى جوهرها عن فلسفة الرواقيين التى سادت الفكر اليونانى فى القرن الرابع قبل الميلاد وسيطرت على العقلية الرومانية بعد ذلك ، وكان لها أثر فعال فى الفلسفة المسيحية ، وتقترب هذه الفلسفة من الفلسفة البوذية . عرض لجميع هؤلاء سؤال واحد : « كيف السبيل إلى السعادة رغم قساوة الظروف الخارجية ، وهل يمكن بلوغها مع ذلك ؟ » واتفق الجميع على إمكان الوصول إلى السعادة رغم قساوة الظروف ورسموا طريقاً واحدة ، وجاء تعريفهم للسعادة واحداً فى معناه رغم اختلاف الألفاظ . فقالت أم عامر : هى « مرانة على عنف الطبيعة ونفس راضية تقنع بميسور العيش وتخضع لمكتوب القضاء . » وقال الرواقى : هى أن تمتلك نفسك امتلاكا حراً ، وتتحرر النفس من قيود الظروف الخارجية ، وتخضع إرادتك الجزئية لإرادة الكون الكلية ، تلك الإرادة الكلية الخيرة المبثة فى أرجاء الكون جميعاً . » وقال البوذى : « هى أن تعرف كل شىء ، وتفهم كل شىء . تنطلق من عبء الحدث وعبء الوجود ، لا تشعر بأية حاجة ، تسافر منفرداً لا يعنيك اللوم ولا المديح ، تقود الغير ولا يقودك أحد .

دعوة مخلصة :

قد يعجب البعض كيف أقارن بين الحكمة الشعبية وبين المذاهب الفلسفية الكبرى ، وقد يرى بعض المهتمين بالدراسات الفلسفية من الفجة والتهجم على قدسية الفلسفة أن أحاول التقريب فى مجال الأخلاق بين الحكمة الشعبية وبين المذاهب الفلسفية الكبرى . فلهؤلاء أؤكد أن بذور التفكير الفلسفى مغروسة فى جميع العقول تقضى عليها لدى البعض ظروف معينة ، وتنميها لدى آخرين ظروف مواتية . ليست الفلسفة ركاماً من المعارف المختزنة ، إنما هى اتجاه فكرى ، إحساس بمشكلة تعترض الذهن وتأملها تأملا حراً بنية الاهتداء إلى سرها من طريق العقل والمنطق . وإذا فهمت الفلسفة على هذا النحو قرّ فى نفوسنا أن الواجب يقضى علينا أن نتعمق حياة العامة ونغوص على حكمهم السائرة ، ونجيل البصر فى كتب الشعراء والأدباء ، لنبرز بدايات التفكير الفلسفى . ويقضى علينا أيضاً أن نكشف عن بساطة المذاهب الفلسفية وكيف أنها تنبع على نحو طبيعى من نفس المنابع التى تنبع منها الحكم الشعبية مع فرق فى درجة الإتقان والتوفيق . حينئذ يتحقق الوئام بين الحكمة الشعبية والفلسفة المذهبية رفعنا من مقام الأولى وردنا الحياة إلى الثانية ، وتندمج عقول العامة وعقول العباقرة فى وحدة فكرية نبيلة لا تنفصم عراها .

تلك رسالتى أدعو إليها بكل ما أوتيت من قوة ، وأجهد فى سبيلها حتى تتلاشى الحواجز الصناعية التى يقيمها نفر من المثقفين . وأؤكد لهؤلاء أن أعقد المذاهب الفلسفية لا يفهم بفهم الألفاظ التى تنقله إلينا ، ولكن تفهم المذهب عند ما تلمس المشكلة التى اعترضت ذهن صاحبه وتتمثل الكفاح الفكرى الذى قام به حتى توصل إلى حل المشكلة وتفسيرها بمذهبه ، أى عند ما تعيش اللحظات الفكرية التى عاشها حينئذ تكتشف أن المشكلة ذاتها قد تعترض أى ذهن ، حتى ليمكننا فى أحوال كثيرة أن نوفق فى

(١) « قروية فيلسوفة » مقالان للأستاذ الزيات بالعددين ٨١٣ ، ٨١٤ من الرسالة .

رد بعض المذاهب الكبرى إلى أصول في الحكمة الشعبية . إن الفلسفة حركة فكرية طبيعية قبل أن تكون معرضاً لفظياً لمصطلحات مبتسرة ، وهي بهذا المعنى بسيطة كما رآها ديكارت وغير واحد من فلاسفة الفرنسيين .

وفيما أنا مشغول بالتفكير في هذه المحاولة ، أقرأ رسالة صغيرة أهداها إلينا أستاذنا الدكتور عثمان أمين [1] يحلل فيها خصائص العقلية الفرنسية ، إذا بي أجد ما يؤيد محاولتي . وكم كان سروري عظيماً عند ما بلغت قوله : « ليست عبقرية الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين إلا كمال ذلك المعنى الذي نجده متجلياً عند فلاحي فرنسا ملموساً في أعمالهم اليومية . »[2] وعندما ورد مع « برجسون » « ليس هنالك فكرة فلسفية مهما يكن حظها من العمق والدقة إلا ويستطاع — بل يحسن — التعبير عنها بلغة الناس المتداولة البسيطة . » ومع « بوالو » :

« إن ما أجد تصوره استطعنا أن نعبر عنه تعبيراً واضحاً ، وجاءتنا الألفاظ عنه طائعة مختارة . » وعند ما علق على قول برجسون وبوالو بعبارة ساخرة تحفزني إلى المضي في طريقي وتعتبر خير سند لفكرة التقريب بين عقول الفلاسفة وعقول المستنيرين من البشر : « ليست كل المياه الملوثة بالطين مياهاً عميقة ، ولا كل المياه الصافية مياهاً سطحية » . [3]

لست إذن أدعو إلى المستحيل ، ولا أنا أطلب بدعاً ، فالفلاسفة الفرنسيون أنفسهم مهدوا السبيل أمامنا فلم يشحنوا مؤلفاتهم بتلك المصطلحات الفنية التي تعتبر ستاراً صفيقاً يحول بين الكثيرين وبين فهمها ، بل عرضوا أفكارهم في بساطة ووضوح ، ولم يصدوا إلى غموض هو كما قال برجسون : « في منزلة القناع يلقيه المؤلف على فكر لم يوفق بعد إلى أن يستبين ذاته تمام الاستبانة . » وتوجهوا بفلسفتهم إلى الجمهور كله بل إلى الإنسانية جمعاء ؛ ذلك أن الفلسفة في رأيهم حق للبشر جميعاً ، وليست امتيازاً لطبقة على أخرى . وعليّ بيان ذلك في العدد القادم إن شاء الله .

(الإسكندرية) عبد المنعم المليجي

(١) خصائص الروح الفرنسي
(٢) صفحة ١٦
(٣) صفحة ١٦

دخـــــان ولهب

للأستاذ إبراهيم الوائلي

لا تغلها — وهي تذكو شعلاً —   بنت كرم إنها كانت ضراما
كلما أفرغتها في كبدي   غادرتها بين أضلاعي حطاما

قد عصرت الروح في الكأس ومن
قلبي المشبوب ذوبت الحبب
وحبست اللحن في صدري أسى   فإذا اللحن دخان ولهب
وترامت على وقد الجوى   مثلما يلقى على النار الحطب
أتراني — ولقد ودعت أمسي
ودفنت اللحن في ظلمة يأسي —
أبعث الأنغام أو تعذب كأسي ؟
لا وعينيك فما تجري سوى   قطرات لم تكن إلا ضراما
وغناني لم يكن إلا صدى   لرنين صيّر القلب حطاما

يا حبيبي إنّ لحناً مرّ في   شفتي بالأمس قد عاد خيالا
وربيعاً كان مفتان الرؤى   لا أرى منه على السفح ظلالا
وغديراً كم بشاطئه الهوى   كفنته الريح شوكاً ورمالا
أتراني — ولقد بات نشيدي
همسة ترقد في الماضي البعيد
أجتني الحسن على رنة عودي
لا وعينيك فما لحني سوى   قطع ينفثها الصدر ضراما
وشعاع الكأس ما كان سوى   لهب قد صيّر القلبَ حطاما

إيه يا أيامي اللاتي مضت   وتلاشت في زوايا الأبد
هل يعود اللحن ريّان الصدى   وتمس القدح العذب يدي ؟
كلما قلت : ستخبو جذوة   أيقظتها أختها في كبدي
آه ما كأسي ، ما عودي وفني
غير أحلام توارت خلف دجن
يا حبيبي لا تسلني أين لحني ؟
إنّ أنغامي في ليل الأسى   لم تكن إلا دخاناً وضراما
وبقايا الكأس ما كانت سوى   حرق صيّرت القلبَ حطاما

إبراهيم الوائلي